الفصل الأول

تحديد المصطلحات أولا

تشيع مصطلحات فى الدراسات اللغوية ، ويختلف العلماء أحيانا على مفاهيم هذه المصطلحات ، ومن الخير تحديدها أولا ، حتى يكون الدارس على بينة منها :

(أ) اللغة (Language) :

اللغة ككرة ، أصلها لغو ، من باب : دعا وسعى ورضى . ووزنها لغة ، حذفت لامها ، وعوض عنها ، هاء التأنيث . وابن جنى يزنها على : فعلة ، من لغوت اذا تكلمت ، ويلزم على ذلك : الجمع بين العوض والمعوض عنه ، وهو غير جائز . لكن اللقانى يبرره بقوله : « وقد يذكر الأصل مقرونا بهاء ونية العوضية تكون الحذف » .

وتجمع على : لغى ، ولغات ، ولغون اى انها الحقت بجمع المذكر السالم ، واعربت بالحرف جبرا لما فاتها من رد لامها فى الجمع .

ومعنى اللغة : الصوت مطلقا ، واللهج (الولوع) بالشىء ، والخطأ ، والسقط (مالا يعتد به) والنطق ، والهذيان ، والباطل ... (جاء تفصيل لكل ذلك فى كتب الأقدمين من علمائنا) .

واللغة فى الاصطلاح :

يعرفها ابن جنى ، بأنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » . والشيخ العلايلى يرى أن ذلك التعريف انما كان فى الدور النشوئى لها ، لكن بعد اكتمالها أصبحت جزءا من التفكير .

ويقول الدكتور انيس : انها اكتسبت مع الزمن صفة اسمى وارقى من مجرد الرمزية لأنها اتصلت بخواطر الناس وافكارهم ، فأصبحت جزءا من هذه الأفكار .

ويرى (ديكارت) : أنها خاصية الانسان ، بما هو حيوان ناطق ، اى مفكر ، وبما هو حيوان بدنى : أى اجتماعى ، فهى تحقق ناطقية الانسان بشقيها : الفكر والعمل ، ومن ثم تجعله أهلا لأن يكون خليفة الله فى الأرض : أى انها الخاصية التى تميز الانسان عن سائر الحيوان . والناطقية عند (ديكارت) ركيزتان : ممارسة التفكير ، وممارسة الحياة الاجتماعية ، فضلا عن انها سبيل الكشف عن النفس ، والغير ، والكون .. والكشف (فعل) كما قال الفلاسفة ..

وعرفها (جفونز) بأنها : وسيلة للتوصيل ، واداة للتسجيل ، ومساعد آلى للتفكير .

ويقول عنها (ميبه) بأنها : كائن مثالى ، لا سبيل الى ادراكه ادراكا مباشرا لأن الباحث فيها يلاحظ مجرد مظاهرها الخارجية ، التى هى مظهر وجودها ، وسبيل انتقالها ، والمحافظة عليها .

وبعض المحدثين يعرفها بأنها : نظام من رموز ملفوظة عرفية ، بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة .

فاللغة نعمة من الله ، وميزة الانسان ، ولها قيمتها فى حياة البشر ، وكانت تعد وسيلة فأصبحت — لقيمتها — غاية : تدرس لذاتها بمناهجها وقوانينها العلمية والعملية ، وأصبح لها قيمة أكبر من الرمزية حين أمست جزءا من الأفكار ، وربطت بين الفكر والعمل ، وعبرت عن الفكر الداخلى والخارجى ، وفى اختيار رموزها قصد وتفكير ، وهى عرفية ترتبط بالمجموعة التى تتناولها ، للاخبار ، والابداع والامتاع .

ومن عناصرها : التفكير ، والصوت ، والمفرد ، والكمال فى التركيب ، والجمال فى التانق والاختيار ، ومادتها تحيط بالبعد المكانى ، والزمانى ، والاجتماعى ، ووظيفتها خير ما يعرفها .

ولم يفرق الأقدمون من العرب بين لفظى (لغة) و (لهجة) ، يقول ابو الطيب اللغوى عن اللهجات فى الابدال : « هى لغات مختلفة لمعان متفقة » . كما أطلقوا على اللهجة لفظ اللحن ، قال اعرابى فى معرض الحديث عنها : « وليس هذا لحنى ولا لحن قومى »

واذا تمعنت فى لفظ (لهجة) فى العربية : (Langage) فى الفرنسية و (Language) فى الانجليزية ، فستجد صلة هذه الالفاظ ببعضها ، وقرب جرسها ، ولعلها — لذلك — مأخوذة من لغة قديمة لهذا التشابه القوى ، الا أننا لا نعرفها نظرا ، لأن لغة الانسان الأول وما تفرع عنها من لهجات لم يصل البحث العلمى فيها الى رأى قاطع حتى الآن . وبعضهم يذكر أنها (يونانية) الأصل .

(ب) اللغة ، واللسان ، والكلام :

مصطلحات تشيع أيضا فى حقل الدراسات اللغوية ، وعلينا أن نلم بها فى ايجاز شديد ، تحديدا للمفاهيم ، ما أمكن ، ولو فى صورة تقريبية ، منعا للتشتت والضياع :

يصف الدكتور عبد الصبور شاهين (دوسوسور) — بحق — أنه رائد الدراسات اللغوية الحديثة ، ويقدم لما نحن فيه بهذه الأمور .

للظاهرة اللغوية وجهان يتقابلان دائما ، ولا يتضح أحدهما الا بوجود الآخر :

فالمقطع التى ننطقها هى تأثيرات صوتية طبيعية Accoustique تستقبلها الاذن ، لكنها مرتبطة بأعضاء النطق ، فلا نستطيع ان نعرفه حركات الأعضاء النطقية اذا ما غضضنا النظر عن التأثير الصوتى .

والصوت اداة للفكر ، ويركب مع الفكرة وحدة مركبة عضوية .

واللغة وجه فردى وآخر اجتماعى ، ولا يمكن تصور أحدهما دون الآخر .

كما أن للغة فى كل لحظة نظاما ثابتا ، وحركة متطورة ، وبناء حاضر ، ونتيجة ماض .. ويصعب فصلهما عن بعضهما ، لعلاقتهما الوثيقة .

واللغة فى مجموعها أشكال كثيرة متضاربة ، لأنها فى مجالاتها المتعددة : مادية وعضوية ونفسانية ، وتنتمى الى مجال اجتماعى ، ولتعقد عمليتها لا ندرى كيف تتحقق وحدتها .

واللسان يمكن أن نتخذه مقياسا لجميع مظاهر اللغة : فهو جزء محدد اساسى منها ، ونتاج اجتماعى لملكة اللغة ، وهى مجموعة من الاعرافه

الضرورية يستخدمها الكيان الاجتماعى ، ليسمح بمزاولة هذه الملكة عند الافراد .

وبعضهم يعترض على ذلك بأن ممارسة اللغة تعتمد على منحة نستمدها من الطبيعة ، على حين أن اللسان شيء مكتسب وعرفى ، ينبغى أن يكون تابعا للغريزة الطبيعية لا أن يكون متقدما عليها .

واجيب : بأنه ليس من الثابت أولا أن وظيفة اللغة — وهى التى تتجلى عندما نتكلم — تكون طبيعية فطرية بصورة كاملة ، اى انه ليس مسلما أن جهاز النطق قد صنع ليتكلم ، ولم يتفق اللغويون حول هذه النقطة . يقول (وايتنى Whitny) الأمريكى : نحن نستخدم الجهاز النطقى اللسان — أداة بمحض الصدفة ، ولأسباب تتعلق بالسهولة فى الاستعمال ، وقد كان بوسع الناس اختيار الاشارة ، واستعمال الصور المرئية بدلا من الصور الصوتية ... ويمكن القول بأن اللغة المنطوقة ليست هى الشيء الفطرى الطبيعى فى الانسان ، ولكن الفطرى هو القدرة على تكوين لسان ، اى : ذلك النظام من العلامات المميزة المقابلة للأفكار المتميزة ... فالقدرة — الفطرية او غير الفطرية على نطق الكلام ، لا تمارس الا بمساعدة الأداة المخلوقة ، والتى هى عطاء المجتمع فاللسان هو الذى يحقق وحدة اللغة ، وله المكان الأول فى دراسة اللغة .

ويلخص الدكتور عبد الصبور شاهين رأى (دوسوسور) فى هذه المفاهيم فيما يلى :

فأما (اللغة Language, angage) فهى كل ما يمكن أن يدخل فى نطاق النشاط اللغوى ، من رمز صوتى ، او كتابى ، او اشارة او او اصطلاح . اى ان اللغة تعنى الكيان العام ، الذى يضم النشاط اللغوى الانسانى ، فى صورة ثقافية منطوقة ، أو مكتوبة ، معاصرة او متوارثة ...

واما (اللسان Langue Tongo) فيطلق على اللغة المعينة ، المنظور اليها بطريقة الصورة المنظمة ، ذات القواعد والقوانين ، وذات الوجود الاجتماعى .

واما (الكلام Parole) فهو اللغة فى صورة ممارسة فردية منطوقة على اى مستوى .

ويمكن استخدام (اللسان) عندما يراد التعبير عن لغة معينة ، ويمكن أن يحل محله التعبير بمصطلح (لغة) موصوفا بما يحددها ، مثل : اللغة العربية ، أو لغة الاصطلاح ، أو اللغة العلمية .

(ج) علم أم فقه ؟

لم يفرق علماؤنا العرب فى الاستعمال بين هذين المصطلحين ، فى مجال الدراسات اللغوية : ـ

فقد سمى أبو الحسين احمد بن فارس (٣٨٥ هـ) مؤلفه : (الصاحبى فى فقه اللغة ، وسنن العربية فى كلامها) ، وناقش فيه قضايا لغوية مختلفة .

وأطلق أبو منصور الثعالبى (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ) على كتابه : (فقه اللغة ، وسر العربية) ، وهو يتناول الألفاظ التى تستعمل فى موضوع واحد ، كمعاجم المعانى ، ويتناول أيضا : قضايا لغوية أخرى ، هى من صميم فقه اللغة .

أما جلال الدين السيوطى (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) فقد سمى مؤلفه الحافل الحاشد بالأبحاث اللغوية له ، ولمن سبقه : (المزهر فى علوم اللغة وانواعها) .

وهناك كتب أخرى فى الدراسات اللغوية ، على نحو أكمل وأحفل لعلمائنا العرب ، الا انها لم تحمل أى مصطلح من (فقه اللغة ، أو علم اللغة) ، مثل : كتب الخليل بن أحمد (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) فى الايقاع والنغم ، والنقط والشكل ، والعروض والشواهد والجمل ، ومعانى الحروف ، ومعجم العين .

ومثل كتاب الخصائص (فى فقه العربية) لابن جنى (٣٩٢ هـ) وكتابه (سر صناعة الاعراب) فى الأصوات ، واحكام الحروف ، وصفاتها ، ومواقعها ، واشتقاقها ونظمها ..

ولابن سيده الأندلسى (٣٩٧ ـ ٤٥٨ هـ) كتابه (المخصص) الذى ضمنه بحوثا وافية فى نشأة اللغة ، والمشترك اللفظى ، والمعنوى ، والابدال والتعريب ... الخ

وكذلك الكتب الأمهات مثل : كتاب سيبويه ، وكتب أبى على الفارسى ، وابن جنى وابن الأعرابى ، وأصحاب المعاجم الرائدة ، وكتب الجواليقى ، والشهاب الخفاجى ، فى معرفة المعرب والأصيل والدخيل من كلام العرب ...

ومن الباحثين المحدثين ، من يحبذ صنيع الأقدمين فى عدم التفرقة بين الإصطلاحين ومنهم من فضل استعمال (فقه اللغة) ، على أساس أن (فقه) بمعنى علم وفهم فسمى الأستاذ الدكتور صبحى الصالح كتابه « دراسات فى فقه اللغة » .

ومن المحدثين من يحبذ استعمال (علم اللغة) على مثل هذه الأبحاث على أساس أن ما جد من أبحاث مبتكرة فى هذا الجانب هى من صنع علماء الغرب فى ابان نهضتهم ، وقد مالوا وحبذوا استعمال هذا المصطلح ، أما استعمال (فقه اللغة) فقد بقى للدراسات اللغوية فى اللغة العربية وحدها .

ويعبر الاوربيون عن (فقه اللغة) بمصطلح فيلولوجى (Philology) بمعنى حب الكلام ، ويختص عندهم بدراسة الأدب ونصوصه ، ودراسة اللغة من خلال نصوصها ، وتحقيق المخطوطات .

أما مصطلح (علم اللغة) فقد قابله علماء الغرب بمصطلح (Linguistics) ويشمل كل فروع الدراسة التى يعنى بها دراسة اللغات ، فى كل مجالاتها .

يقول الدكتور محمود اسماعيل صينى :

قد يعجب القارىء حين يجد أن علماء العرب أنفسهم لم يتفقوا بعد على تسمية معينة لموضوع تخصصهم (وهم أولى الناس بذلك) : فالبعض يطلق عليه « علم اللغة » أو « علم اللغات » ، وفئة تسمية « اللسانيات » ، وثالثة تنعته « باللغويات » ، ثم هناك من يسميه : « فقه اللغة » ... ولكن من هؤلاء وأولئك ما يبرر به تسميته . ولو أن هناك شبه اتفاق بين المحدثين على تجنب مصطلح « فقه اللغة » ، لأنهم يرون أن هذا التعبير أقرب شىء الى ما يعرف بالـ (Philology) بالانجليزية ، أى أن لدلالته ارتباطا وثيقا باللغة المكتوبة ، والأدب ، وتحقيق النصوص ، والدراسات التاريخية ، وما شابه ، مما قد يؤدى الى تشويش مفهوم « علم اللغة » بمعناه الحديث .

أما نحن فنرى « علم اللغة » قد يكون أقرب الى المفهوم السائد ، المعروف بالانجليزية بـ (Linguistics) وبالفرنسية (Linguistique).

وذلك قياسا على ما نسمى به بعض العلوم الحديثة ، مثل علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم النبات .. الخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين ، يرى الفرق كبيرا بين مفهوم الاصطلاحين في الثقافة القديمة والحديثة ، وهو فرق ينبغي أن يراعى عند استعمال ايهما ... **والرأى** — اذن — استعمال (فقه اللغة) لدراسة العربية وخصائصها ، على حين يستخدم الثانى استخداما شاملا فى كل ما يتصل بالعربية وغيرها من اللغات من فصيلتها أو غيرها .

(د) لغة الانسان ، ولغة الحيوان :

ذكرنا أن اللغة : « أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » ... اى أن اصطلاح اصحاب اللغة — من الأناسى — على شكل المجموعة الصوتية يصحبه دائما اصطلاحهم على ما تحمله من شحنة دلالية ، هو الذى يفصل غالبا لغة انسانية عن أخرى .

وكانت اللغة انفعالية ، ثم تطور أمرها بتطور نضج الانسان ، ونضج عقله وترقى تفكيره .

واللغة بهذا المعنى من خصائص الانسان وحده ، دون سائر المخلوقات الأرضية الحية الأخرى . ولكنا نسمع — على نطاق واسع — عن لغات كثيرة يتم بها الاتصال بين عدد وفير من المخلوقات ، مثل :

لغات النمل ، والطيور ، والحيوان ، والأسماك ، والاشارة ، والكومبيوتر وحتى لغة العيون التى يتغنى بها الشعراء .وجاءفى القرآن الكريم اشارة لبعض هذه اللغات ، كما حكى سبحانه عن نملة سليمان — عليه السلام — : **« قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها »** (١) . وقوله تعالى عن الهدهد وسليمان : « **فمكث** (الهدهد) **غير بعيد فقال : احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبا بنبأ يقين ..** » (٢) فهل لمخلوقات الله الأخرى لغات تتخاطب بها ؟ وهل تختلف هذه اللغات عن لغات البشر ؟ وما هو الاختلاف ؟ وهل الانسان هو الوحيد القادر على اكتساب أو تعلم اللغة ؟ وهل تعجز الحيوانات الراقية

---

(١) النمل : ١٨ ، ١٩ (٢) النمل : ٢٢

عن ذلك ؟ ... اسئلة كثيرة شغلت الأذهان ، وحاول العلماء الاجابة عنها ، واثارت جدلا واسعا .

والذى نميل اليه من اجابات العلماء والباحثين — فى ايجاز يناسب ما نحن فيه — هو : أن اللغة بصفتها السالفة من خصائص الانسان وحده ، لانها اصطلاحية وتواضعية ، ومقرونة بالفكر فى اصدار الأصوات وتلقيها ، ويحكمها العقل ، ، وينظم عملياتها ولا يجعلها ضوضاء خالية من المعنى ، والنظام هو الذى يمنحها الثراء والفاعلية والتعبير عن الأهداف السامية ، والذهنية المجردة ، كما أن الخلف يتوارثها عن السلف ، فاذا عاش الانسان منفردا فلا لغة له على الاطلاق . وكذلك تستطيع لغة البشر أن تشير الى اشياء واحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا ، ولو كانت غير منظورة . كما أن للغة البشر مقدرة على الخلق والابتكار . فاللغة الحقيقية — اذن — ظاهرة خاصة بالانسان .

كما أن اللغة الانسانية تطبع لا طبع ، فالطفل المعزول عن المجتمع البشرى كلية لا يتعلم اية لغة ، بينما الطفل المنقول الى اى مجتمع آخر يتعلم بالسرعة والسهولة لغة ذلك المجتمع .

ويذكر الدكتور نايف خرما : أنه ثبت بعد التجارب والدراسات اللغوية أن اللغة البشرية لا يمكن تعليمها لغير البشر ، برغم التجارب العديدة التى اجريت على الحيوانات فى فصائلها العليا ، لأن جميع الصفات الخاصة بجهاز النطق عند الانسان مواتية لنطق الأصوات المختلفة المستعملة فى لغات البشر ، ومن ثم كانت اللغة بمفهومها الحقيقى قدرة فطرية خاصة بالجنس البشرى .

وقد حاولت التجارب العلمية فى امريكا أن تعلم (الدلفين أو الدرفيل) لغة الانسان ، الا أن النتيجة حتى الآن ضئيلة جدا . وحاول الاستاذ (كلوج) وزوجته عام ١٩٣١ تعليم (الشمبانزى) لغة ، فنشأه مع ابنهما ، واسماعهما اللغة العادية ، وكانت النتيجة أن (الشمبانزى) لم تتكلم مطلقا ، ولكن فهمت واستجابت لمعنى سبعين كلمة من مفردات اللغة . وكذلك حاول الأستاذ (هايز وزوجته) مع (شمبانزى) بطريقة مكثفة لمدة ثلاث سنوات تعليمها اللغة البشرية ، فكانت الحصيلة : انها فهمت عددا من المفردات لكن

لم تنطق سوى أربع كلمات منها (بابا وماما) بصورة غير واضحة ، لأن القرد ليس كالانسان مهيأ بصفات بيولوجية خاصة بجهاز النطق تمكنه من نطق أصوات اللغة .

فتعبير الحيوان أدنى مستويات التعبير ، التى يصدر بها أصوات يفهم منها حاجاته الضرورية الاساسية والتى يطلب اشباعها ، حين يكون جائعا ، أو ظمآنا ، أو غير ذلك .

وحتى الآن لم تفهم لغة الحيوان المتباينة ، التى تستعمل فيها الأصوات والاشارات ، والكيماويات : فالطيور تستعمل الأصوات . والخفاش والدرفيل والحوت تستعمل الصدى . والنحل تستعمل الاشارات والحركات والألوان ، كما ذكر العالم الألمانى (كارل فون فرش) . ومن الحشرات ما ينتج مادة كيماوية تسمى (الفيرمون) وتسيطر على التنظيم الاجتماعى للمستعمرة . ومن الأسماك ما يستعمل الموجات الكهربائية فى التواصل .. ولكن حتى الآن لم تفهم لغة الحيوان ، وربما نرى فى المستقبل وصفا دقيقا لها ، قد يساعد فى الاتصال بالكائنات الحية ، التى تساكننا على وجه المعمورة .

فحديثنا فى هذه الدراسة يقتصر على اللغة الانسانية ، وما أعظم منة الله على الانسان ، حيث يقول : « **الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان** » (١) .

* * *

(١) الرحمن : ١ ــ ٤